وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم
٣

مُقدِّمة في النَّحو

تأليف

خلف الأحمر

خلف بن حيان الأحمر البصري

(— ١٨٠ هـ)

تحقيق

عز الدين التنوخي
عضو المجمع العلمي العربي

دمشق
١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وأَعِنْ بِرَحْمَتِكَ وَبِلُطْفِكَ

كلمة المحقق

إن من مناهج الرّشد التي تنهجهـا وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق بفضل نخبة من كُفاة رجالها في مديريّة (إحياء التّراث القديم) أن تُعنى بنشر ذخائر ذلك التراث من المخطوطـات العربية ؛ ومن ذلك أن العلاّمة الحجّة الشيخ عبد العزيز الميمنيّ كتب لهذه الوزارة في العام الماضي جريدةً بأسماء مافي خزائن فَروق [1] من المخطوطات النفيسة ، ومنها هذه المقدمة النحوية لخَلَف الأحمر ، ولعلها إن صَحّت نسبتها لخلف أن تكون أقدم ماأُلّف في النحو من المختصرات ، كما أن أقدم ماأُلف فيه من المطوّلات هو كتاب سيبويه ، وما كان لنا أن نذكر ماصُنّف في النحو قبل الكتاب ، فإن هـذه المصنّفات مفقودة كالأوراق الأربع التي ذكرها ابن النديم في الفاعل والمفعول من كلام أبي الأسود الدؤليّ أو كالجامع والمكمّل (الإكمال) اللذين ألّفهما عيسى بن عمر الثقفيّ ، وقد جاء في الفهرست أن الناس قـد فقدوا هـذين الكتابين منذ المدّة الطويلة ، ولا خَبَّر أحد أنه رآهما .

وصوّرت مديرية إحياء التراث القديم هذه المقدمة وأعطتني نسخة منها قُبيل سفري إلى القاهرة لحضور المؤتمر الأول لمجمع اللغـة العربية راغبةً

---

(١) في القاموس المحيط : فَروق كصَبور لقبُ قسطنطينية .

إليّ رغبةَ الاستاذ الميمني في أن أتولّى أمر تحقيقها ، وفي القاهرة شرعت في قراءتها وإنعام النظر في عبارتها ، وفي شرح ماغمض وفسدَ منها على حين غفلةٍ من الناسخ ، وحاولت تأييدَ مافيها من مسائل النحو البصرية بما نقلته عن نحاة البصرة .

إن هذه المقدمة النحوية ليس لها أخت في خزائن الأرض تساعد على التثبت من صحة نسبتها لخلَف الأحمر ، أو تُعين على تحريرها وتقويمها ، وماهي من حيثُ ثبوت الصحة بشبيهةٍ بكتاب (الإبدال) الذي نشرناه لحجة العرب أبي الطيّب اللغويّ ، فإنه — على ماأصابه من البَتر الأول والأخير ، ومع خُلوّه من صفحة العنوان والسماعات — قد توفّر له من شروط الوِجادة مالم يتوفّر لهذه المقدمة الخطيرة كشهادة ابن مكتوم القيسيّ وابن الشحنة اللغويّ الحلبي في حواشيها المطرّزة بخطهما بأن كتاب (الإبدال) هذا هو لأبي الطيب عبد الواحد بن علي الحلبيّ ؛ وأمّا مقدمة خلف هذه فليس لها من أدلة العزو ما يُعتمد عليه فيكون مسلّم الثبوت ، وقد قال ابن الصّلاح : « وقد تسامح اكثر الناس في هذه الاوقات بإطلاق اللفظ الجازم من غير تحرٍّ وتثبت ، فيطالع أحدهم كتاباً منسوباً إلى مصنف معيّن ، وينقل عنه من غير أن يثق بصحة النسبة ... » ؛ غير أنّه وإن فاتنا السّند الصاعد إلى المصنف ، لم يفتنا النظر الى المَتن ، فإن لغته على الظنّ الغالب هي لغة عصر خلف الأحمر وسيبويه والخليل ، واصطلاحاته بصرية ، وما فيه من مسائلِ النحو على مذهب البصريين ، وبعضها على مذهب يونس بن حبيب شيخ خلف أو ممّا ذهب خلف اليه : كلُّ أولئك ممّا يستأنس به في عَزْوِ هذه المقدمة النحوية ، ومَن حفظ حجة على من لم يحفظ . وستَظل هذه المقدمة لخلف الأحمر حتى يأذن الله بظهور أختٍ لها في مدافن مَجاميع الخزائن لإثبات نسب هذه المقدمة ؛ على أن نقلَ العدل الواحد لايشترط فيه أن يوافقه غيره :

لأن الموافقة تُشتَرط لغلبة الظنّ ، وغلبة الظن قد تحصل بخبر الواحد من غير موافقة ، وليس بصحيح مازعمه بعضهم من أنه لابدّ من نقل اثنين كما في الشهادة ، لأنّ النقل مبناه على المساهلة بخلاف الشهادة ، فلا يقاس أحدهما بالآخر .

عرضها على نحاة مصر . — رأيت أيام زيارتي الأخيرة لمصر (١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م) أن من تمام التحقيق وطمأنينة العلم أن أعرض هذه المقدمة على بعض أصدقائي ممن قضى حياته في درس النحو وتدريسه فمحّص حقائقه ووقف على أغراضه ، وكنت أعلم أن صديقي الاستاذ محمد الفحام بعد أن أحرز الشهادة العالمية من الأزهر الشريف ذهب الى باريس والتحق بالسربون . وكانت أطروحته (المصطلحات الفنية عند العرب) فنال عليها الشهادة الدكتورية بدرجة الشرف الممتاز ، وكان ينبغي لذلك أن أطلعه على هذه المقدمة الخلفية ، فأعجب بسلاسة عباراتها وفرط سهولتها ، ورأى أن اصطلاحها النحوي لايختلف عن اصطلاح البصريين ، لأن شيوخ البصرة والكوفة في عصر خلف قد استقوا جميعاً من منهل القرن الأول فلا يختلف بعضها عن بعض كثيراً ، والمسائل النحوية التي تعرّض خلف لها هي على مذهب البصريين ، فليس إذن ما يمنع أن تكون هذه المقدمة النحوية لخلف الأحمر كما جاء في صفحة العنوان .

وأطلعت عليها صديقي الحفيّ وأمير البيان الأستاذ احمد حسن الزيات فقال لي بعد اطلاعه عليها : هذا هو النحو قبل أن يُفلسفوه ، ورأى أن أطلع عليها الأستاذ النحوي الكبير الشيخ محمد علي النجار ، فأكّد لي بعد اطلاعه عليها الفائدة الكبيرة من نشرها ، وأن خلفًا الأحمر هذا غير عليّ الأحمر الكوفي ، والناس كما ذكر أبو الطيب اللغوي لا يفرّقون بينهما ؛ ثم أطلعت صديقي العلامة المحقق وناشر النحو بحلته العصرية الشيخ محمد محيي الدين

عبد الحميد ، فقال بعد اطلاعه عليها : وإني لأشارك صديقي الدكتور الفحّام في رأيه ، فإن هذه المقدمة النحوية النادرة لمن أسهل ما صُنّف كالآجرّومية للمبتدئين ، ولقد استأنست كثيراً بآراء من اطلعوا على هذه المقدمة النحوية وهي أندر مخطوطات النحو القِصار في العالم ، فلا يسعني إلا أن أقابل ما لقوه من عناء بجميل الثناء والدعاء .

وصف المصوّرة . — إن وصف المصوّرة الشمسية ليصدق على وصف المخطوطة الأصلية . وهي إحدى رسائل المجموعة الخطية برقم ٢٣٥٨ في مكتبة شهيد علي بمتحف الآستانة ، وخطها نسخيّ غير متقن ، وضبطها كخطها غير صحيح بجملته ، فمنه جمل صحيحة ، وأخرى لا حظّ لها من صحة الضبط ، وأحد شواهدها فاسد التركيب والوزن والمعنى ، وآخر ملفّق من بيتين ، ممّا يدلّ على أن الناسخ كان في العربية ضعيفًا ؛ ولعله ما استنسخها إلا ليتعلّم مبادىء النحو منها ، وله ، مع ذلك كله ، شكر العلم لنسخه هذه المقدمة النحوية النادرة ، ولعله نسخها عن النسخة الوالدة أو عن المنسوخة عنها ، فلولاه لما وجدنا منها عينًا ولا أثرا .

وهذا الناسخ قد عرّفنا بنفسه في خاتمة هذه المقدمة فهو محمد بن إبرهيم ابن فرج ، وفرج من الأسماء الشائعة في الديار المصرية ، فلعل هذه النسخة وأمها الأصلية كانتا ممّا نقله السلطان سليم غصبًا إلى الآستانة ، وضاع الأصل ، وما حفظ هذه النسخة إلا أنها كانت مدفونة في المجاميع الخطّية ، وكان تاريخ نسخها يوم السبت في الثاني والعشرين من شهر صفـــر سنة ست وثلاثين وثمانمائة للهجرة .

وترى في منتصف الصفحة السابقة للأخيرة ، وعلى الجانب الايسر منها خاتمَ خزانة الواقف ، ونص الوقف فيه : (ممّا وقف الوزير الشهيد علي باشا رحمه الله بشرط أن لا تخرج من خزانته) ، وفي أسفل الصفحة التالية للأخيرة

ترى اسم أحد المطالعين لهذه المقدمة ، ونص عبارة المطالعة : (طالع في هذا الكتاب المبارك محمد بن أحمد المقتدي (١) الحلبيّ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحيـــاء منهم والأموات تحريراً في سنة ١٠٥٠) .

وعدد صفحات المقدمة سبع عشرة ، وفي كل صفحة منها خمسة عشر سطراً ، وفي السطر الواحد نحو ثماني كلمات .

معالم القِدَم — ومن مُرجّحات قِدم هـذه المقدمة ، وعلامات الإثبات التي يُهتدى بها في التحقيق : صفحة العنوان الذي يصرّح بأن المقدمـة تأليف خلف الأحمر ، ولئن كان تصريحُ العنوان لايكفي في الترجيح والإثبات ، فإن كثيراً من مســائل هذه المقدمة تبتدىء بقول المؤلف (قال خلف الأحمر) ، وقد تكرر مثل هذا القول في مصنّفات المتقدّمين ، كأمالي القالي الذي يؤكد عزوَ الأمالي اليه بقوله (قال أبوعلي) ، وترى في مراتب النحويين : (قال أبو الطيّب) ، حتى أكدوا ذلك في الشعر كابن مالك الذي افتتح ألفيته بقوله : (قال محمد هو ابن مالكِ).

ومن تلك العلامات الهادية أن يصاحب البسملة جملة يلتجئ بهـا المصنف الى الله تعالى : فسيبويه يقول : الله لطيف بعبـاده ، ويقول : صاحب الفهرست : رب يسّر برحمتك ، وغيره يقول : وبه نستعين ، وخلف الأحمر : رب يسّر وأعن بلطفك ، فتقوم هذه الجمل مقام الخطبة في فاتحة كل كتاب ؛ ومنهـا الاستشهـاد بالآيات القرآنية فيغلب على المتقدمين أن يقولوا قبل ذكر الآية : (قال عزّ وجل) كما جـاء في مقدمـة خلف الأحمر ، وفي كتاب سيبـويه ، فلقد قلّبت كثيراً من صحـائف الكتـاب ، فألفيت في نحو خمسين صفحـة منه من الجزء

---

(١) أو (المهتدي) ، والكتابة في المصورة غير واضحة .

الأول [١] لا يقول المؤلف إلا" : (ومثل ذلك قوله عز وجلّ ، وأما قوله عز وجلّ ، وقال عز وجل) ولم أعثر بينها مرة واحدة على مثل (قوله تعالى)، وقليلًا ما نراها في الكتاب ، وأكثر ما يستعمله ابن هشام في مغنيه : (قال الله تعالى ، وفي كتابه تعالى) مثلًا ، وقد يستشهد بالآية بدون عَزْوٍ كقوله : (نحو الآية ... ومثله الآية ...) وكذلك يفعل المتأخرون .

دفع شبهة النفي . — ذكرنا في كلمة التحقيق أن الشيخ (الدكتور) محمد الفحّام رأى بعد اطلاعه على هذه المقدمة أنها بصرية المصطلح والنحو ، ولا ينفي هذا أن يكون بعض ألفاظها مما يستعمله الكوفيّون فإن شيوخ البصرة والكوفة في عصر خلف الأحمر قد استقوا جميعاً من منهل القرن الأول ، فخلف الأحمر والكسائي قد أخذا عن يونس بن حبيب ، وقرأ الكسائي كتاب سيبويه على سعيد بن مسعدة الأخفش تلميذ سيبويه ، فالجرّ والخفض ومثلهما العطف والنسق مثلًا مما نراه مستعملًا في كتب المذهبين ، وقد صرّح الإمام الزجّاجيّ (- ٣٣٧) في كتابه الإيضاح في علل النحو [٢] بقوله (ص ٩٣) في تفسير الجرّ : (هذا مذهب البصريّين وتفسيرهم ، ومَن سمّاه منهم ومن الكوفيين خفضًا) ولا شك أن ضمير (منهم) يعود إلى البصريّين ، ومعنى هذه العبارة الجلية أن بعض البصريين يسمون الجرّ (خفضًا) ، كبعض الكوفيّين .

وفي الواقع نرى أن كتب النحو على الخلاف بين المذهبين تستعمل الجرّ والخفض معًا ونثراً ونظماً ، فهـذا الإمام ابن مالك يقول في خلاصته الألفية :

---

(١) ما بين الصفحتين ٢٧ و ٧٧ مثلا .

(٢) الذي نشرته بمصر دار العروبة بتحقيق السيد مازن المبارك .

وعَودُ خافضٍ لدى عَطف على ضميرِ خفضٍ لازمًا قد جُعلا

وقد استعمل الخفض في شطرين متواليين ، ويقول في الاستغاثة :

إذا استُغيث اسمٌ منادىً خُفِضا بالّلام مفتوحًا كيا للمرتضى

وفي أسماء الأفعال يقول :

كذا رويدَ بَلْهَ ناصبينِ وَيعملانِ الخفضَ مصدرينِ

وكان يستقيم له الوزن لو قال : (ويعملان الجرّ مصدرين) ، ولا يتسع صدرُ البحث للإطالة ، في مثل هذه العُجالة .

هذا ما يقال على هذه المقدمة النحوية بالجملة ؛ وأما أجزاؤها وقواعدها فإن لكل قاعدة بصرية في النحو ما يثبتها فيما لا يحصى من كتب نحاة البصرة ، وفي الظنّ الغالب أنه كان لهذه المقدمة أخوات في مثل البصرة والكوفة أو مدينة السلام ، فأغرقهنّ التتر بدجلة فيما أغرقوا من كنوز التراث القديم ، فعسى الله أن يوفق عُشّاق تراث السلف الصالح إلى استخراج ذخائره وبعثها من مرقدها ، وما ذلك على الله بعزيز .

دمشق الجديدة — في ٢٧ رمضان ١٣٨١ هـ و ١٥ آذار ١٩٦١ م

وكتبه شارحه

عز الدين بن أمين التنوخي

لطف الله تعالى به

* * *

خَلَف الأحمر

(... – نحو ١٨٠ هـ)

(... – نحو ٧٩٦ م)

قال أبو الطيّب اللغويّ في فاتحة مراتبه [١] مانصه :

« ويحكون المسألة عن (الأحمر) فلا يدرون : أهو الأحمر البصري أم الأحمر الكوفيّ ؟ » ، ومن أسباب هذا اللّبس أن يذكر في الكتب (الأحمر) غير مسمّى ولا منسوب ، فيخال القارىء ان هذا الأحمر هو خلف بن حَيّان الأحمر البصري لانه أشهر ، وهو في الواقع عليّ بن المبارك الأحمر الكوفي تلميذ الكسائيّ [٢] ؛ وقد وقع في مثل هذا اللّبس ابن هشام في مغنيه [٣] (١/٨٨) في الكلام على المسألة الزنبورية حينما عزم يحيى ابن خالد على الجمع بين سيبويه والكسائيّ قال ابن هشام : (فلما حضر سيبويه تقدّم اليه الفرّاء وخلف ، فسأله خلف عن مسألة فأجاب عنها ، فقال له : أخطأت ، فقال له سيبويه : هذا سوء أدب ...) ، والحال أن الذي تقدم الى سيبويه هو الفرّاء والأحمر الكوفي عليّ بن المبارك تلميذ الكسائي ، فتوهّم ابن هشام أن الأحمر هو خلف ، وخلف هو الأحمر البصريّ رفيق سيبويه في طلب العلم فقد أخذا عن يونس بن حبيب

---

(١) مراتب النحويين (مط . نهضة مصر بالفجالة) .

(٢) ويذكر السيوطي في بغيته (٤٣٦) أن الأحامرة أربعة أشهرهم اثنان : خلف البصري وعلي بن المبارك الكوفي ، والثالث أبان بن عثمان اللؤلؤي ، والرابع ابو عمرو الشيباني .

(٣) بتحقيق العلامة محيي الدين عبد الحميد (مط السعادة بمصر) .

البصريّ وغيره ، فكان خليقًا بالأحمر البصريّ أن ينتصر لسيبويهِ ولمدرسته البصريّة كما انتصر الأحمر الكوفيّ لأستاذه الكسائي ولمدرسته الكوفية ، فهو الذي هاجم بالتخطئة سيبويه انتصاراً لشيخه ولمذهبه الكوفيّين ، هذا من جهة المنطق ؛ وأمّا من جهة التاريخ الأدبيّ ، وتمحيص هـذا الخبر بأسانيده ، فهنالك ثلاث روايات له :

الأُولى : رواية أحمد بن يحيى (ثعلب) ، ومحمد بن يزيد الثُّمالي (المبرّد) ، ونصّها : « وحضر سيبويه وحده ، وحضر الكسائي ومعه الفرّاء والأحمر وغيرهما من أصحابه . . . » .

والثانية : رواية المازني يحكيها عن الأخفش أنبغ تلاميذ سيبويه : « فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه إلى دار الرشيد فوجد الفرّاء والأحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سفيان . . . » .

والثالثة : رواية الفرّاء أنبغ تلاميذ الكسائي ونصّها : « فلمّا حضر تقدمتُ أنا والأحمر . . . » ، والفرّاءُ ، إنما يتكلم عن نفسه ، فهو أدرى بالحقيقة وبمن رافقه في مهاجمة سيبويه ، وفي هذه الروايات الثلاث لم يذكر فيها اسم (خلف) كما جاء في مغني اللبيب وغيره من كتب النحو التي ألفها المتأخرون مثل شرح الكافية للرضيّ الاستراباذيّ (١٢٨/١) فقد جاء في الكلام على العامل في المفعول فيه : « وقال خلف من الكوفيّين : إن عامله كونه مفعولاً » ، وجاء في همع الهوامع للسيوطي في بحث الفاعل كما نقله أبو حيان في ارتشاف الضَّرَب : « أن العامل في المفعول معنى المفعولية : أي كونه مفعولا كما قال في الفاعل : إن عامله كونه فاعلًا وعليه خلف » ، ومثل ذلك ماجاء في الاشباه والنظائر : « وذهب خلف الأحمر إلى أن العامل في الفاعل معنى الفاعلية كذا نقله عنه ابن عمرون وابن النحاس في التعليقة ، وذكر ابن فلاح في

شرح المغني : « وذهب خلف الأحمر الى أن العامل في المفعول معنى المفعولية » واكثر من نقل عن ابن هشام وقع في الخطأ عينه ، وليس شيء أدلّ على هذا الخطأ من قولهم : (وقال خلف من الكوفيين) ، وما كان خلف الأحمر أبو محرز إلاّ من البصريّين .

ويذكر الجمال القفطيّ في إنباه الرواة (٣٦/٢) سعيد بن مسعدة وهو الأخفش الراوية ، وكيف أنبأه سيبويه بنبأ المناظرة بعد رجوعه من بغداد ، قال الأخفش الذي ذهب الى بغداد بعد وداع أستاذه منتصراً له بمناظرة الكسائي « فوافيت مسجد الكسائي فصلّيت خلفه الغداة ، وقعد في محرابه وبين يديه الفرّاء والأحمر وهشام وابن سعدان . . . » ثم يذكر القفطي بالصّراحة كلها أن الأحمر الكوفيّ النحويّ صاحب عليّ ابن حمزة الكسائي هو الذي ناظر سيبويه لمّا قدم بغداد ، وقد ذكر المناظرة مفصلةً في ترجمة سيبويه .

هذان هما الأحمران اللذان التبس أمرهما على كثير من الخلق ، وهنالك أحمران آخران ذكرهما السيوطي في بغيته (٤٣٦) فهم على ذلك أربعة (١) ، قال : إن أشهرهم اثنان : خلف البصريّ وعليّ ابن الحسن الكوفي ، والثالث أبان بن عثمان الطولوي ، والرابع أبو عمرو الشيباني » ، بل أشعر الاحامِرة جميعاً هو أبو محرز خلف الأحمر بن حيان ابن محرز الأشعريّ البصريّ الذي لم يكن في نظرائه من الرواة مَن هو أعلم منه بالعربية نحواً ولغة وشعرا ولا أصح نقداً للشعر ، ولا أطبع منه على صوغه صياغةً فحول الجاهلية .

---

(١) وقد أحصيت من الأخلاف النحاة واللغويين ما يزيد على عشرة منهم : خلف بن هشام البزاز البصري حدث عن محبوب البصري عن خالد الحذاء عن نصر بن عاصم الليثي .

شيوخ خلف الأحمر . — وأخذ خلف النحو عن أئمة عصره كعيسى ابن عمر الثقفى ، ويونس بن حبيب النحوي الذي لازم مجالسه كما ذكر أبو زيد الأنصاريّ عشرين سنة ، وكان النحو أغلب على يونس من غيره من العلوم ، وأخذ النحو أيضاً والغريب والقراءة عن أبي عمرو بن العلاء ، وشاركه في الأخذ عنه شيخه يونس بن حبيب ، وأبو محمد اليزيدي وسيبويه وقطرب ، وأخذ اللغة والغريب عن أبي الخطّاب الأخفش وعن أبي زيد ، وكان طلاب العلم لا يجدون غضاضةً في أخذ بعضهم عن بعض وفي اشتراك الأستاذ وتلميذه في الأخذ عن شيخ واحد أحيانا .

وأخذ خلف الشعر عن حمّاد الراوية ، وأكثر من الأخذ عنه ، وكان حماد يحفظ على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة جاهلية طويلة ، وهو الذي جمع السّبع الطُّوَل وكثيراً من شعر الجاهلية كما ذكره أبو جعفر النحاس ، وعليه اعتماد الكوفيين ؛ وكان سيبويه من زملاء خلف الأحمر في الأخذ عن حماد بن سلمة ويونس بن حبيب وأبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر الثقفي ، وكان يونس بن حبيب يقول : أول من تعلمت منه النحو حماد بن سلمة ، وفي رواية أخرى : كان حمّاد رأس حلقتنا ومنه تعلمت العربية .

تلاميذ خلف . — منهم الأصمعيّ عبد الملك بن قُريب فقد أخذ عن خلف الأحمر علم الشعر ونقده ، قال أبو عبيدة : خلف الأحمر معلم الأصمعيّ ومعلم أهل البصرة ، وقال الأصمعي (الموشح / ١٢٥) قرأت على خَلَف شعر جرير فلما بلغت قوله (الديوان ٤٧٧) :

ويومٍ كإبهام القَطاة مُحَبَّبٍ ... إليَّ هَواهُ غالبٍ ليَ باطِلُهْ
رُزقنا به الصَّيدالغزيرَ ولم نكن ... كمن نَبلُه مَحرومةٌ وحبائلُهْ
فيالكَ يوماً خيرُهُ قبلَ شرِّهِ ... تغيّبَ واشيهِ وأقصر عاذلُه

فقال خلف : وَيْلَهُ ، وما ينفعه خير يؤول إلى شر ، فقال الأصمعيّ له : هكذا قرأته على أبي عمرو ، فقال : صدقتَ وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرَّدَ الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليُقرئك إلا كما سمع ، فقال الأصمعيّ : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال خلف : الأجودُ له لو قال : (فيالك يوماً خيره دون شره) ، فارْوِهِ هكذا ، فقد كان الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء ، فقال له الأصمعيّ : والله لا أرويه بعد هـــذا إلا هكذا ؛ قلت : وهذا الخبر ينبيء بأن الأصمعيّ كان يقرأ على خلف أشعار القدماء ومنهم جرير ، ويُرينا مثالاً من نقد الشعر الذي تعلمه الأصمعيّ من خلف الأحمر .

ومن تلاميذه العلماء بالشعر محمد بن سلاّم الجمحيّ صاحب الطبقات ، وأبو نواس الحسن بن هاني الذي قال فيه الإمام الشافعي : لولا مُجون أبي نواس لأخذت عنه العلم ، وكان أبو نواس معجباً بأستاذه وصديقاً مخلصاً له ، وقد رثاه بعدة قصائد ، وسمع منه أبو عبيدة وحدّث عنه أبو حاتم السجستاني ، وأبو العاصي وخلق كثير .

خلف الأحمر من النحاة . — ذكرنا أن خلفـًا أخذ النحو عن أئمته كأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب شيخ سيبويه ، وعيسى بن عمر الثقفي وحماد بن سلمة بن دينار ، وأبي الخطاب الأخفش وغيرهم ؛ ولكن شهرته بالشعر ونقده وروايته قد غطّت على علمه بالنحو شأن كثير من العلماء الذين اشتهروا بعلمٍ غلب عليهم ، وهم لا يقلّون عما اشتهروا به في علوم أخرى ؛ وهذا أبو زيد الأنصاري الذي اشتهر كالأصمعيّ وأبي عبيدة باللغة والنوادر وأشعار العرب وأخبارها ، كان من علماء النحو الواقفين على أسرارها ، وقد أفاد سيبويه منه كثيراً ، وكان إذا قال : حدثني الثقة ،

أو حدثني من أثق بعربيته فهو الذي يعنيه بذلك ، وهو القائل : جلستُ إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة ، وكان النحو ـ كما ذكره أبو الطيب اللغوي في مراتبه ـ أغلبَ على يونس من غـــيره .

وخلف الأحمر وصاحب (الكتاب) سيبويه أخـذا عن يونس بن حبيب الذي أخذ عنه أبو زيد والكسائيّ والفرّاء وخلق ، كما أخذا عن أبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر الثقفي وحمّاد بن سلمة ، فهما في طلب النحو رفيقان ، وفي لغة العرب فرسا رهان ؛ ومن رافق خلفاً في تلقّي النحو واللغـــة والقراءة عن أبي عمرو بن العلاء يحيى بن المبارك اليزيدي ، وكانا من خاصة تلاميذه الذين يثق بهم ، فقد ذكر ابن هشام في مغنيه (١ / ٢٩٤) مسألة (ليس الطيب إلاّ المسك) ، وأن بني تميم يرفعون (المسك) حملًا على (ما) في الإهمال ، وأن أهل الحجاز ينصبونه بإعمال ليس ، حكى ذلك عنهم أبو عمرو بن العلاء ، فأنكر ذلك عليه عيسى بن عمر الثقفيّ فقال له أبو عمرو : نمتَ يا أبا عمر وأدلج الناس ! وأرسل خلفاً واليزيديّ إلى أبي المهديّ والمنتجع التميمي فأيّد جوابهما أبا عمرو بن العلاء . وهكذا كان خلف الأحمر ممن تمرّس ، وهو فتى ، بمسائل النحو على أيدي أئمته المحققين .

وقال أبو حاتم (١) ، قال الأصمعي : كأنما جُعل علم لغة ابني نزار ومن كان من بني قحطان على لغة ابني نزار ، بين جوانح الأحمر بمعانيها !

إحداث السماع بالبصرة . — قال عَشِر : وخلف الأحمـــر أول من أحدث السماعَ بالبصرة ، وذلك أن خلفاً جاء إلى حماد الراوية فسمع منه الشعر ، وكان حماد ضنيناً بأدبه ، وبفضل خلف ومحبة حماد له أسلس

(١) طبقات الزّبيدي ١٧٩ .

حمّاد قيادَه للراغبين في علمه من أهل البصرة ، فاخذوا في حلقة العلم عنه ، وذلك لعلمهم بانفراد حمّاد بروايات من الشعر ليست لغيره ، فأخذوا عنه كلّ شعر امرىء القيس بن حُجر ، وكانوا قد أخذوا بعض شعره من أبي عمرو بن العلاء ، وقالوا عن حماد : إنه كان من أعلم الناس بلغات العرب وأيامها وأشعارها وأخبارها ، وإنه هو الذي جمع السبعَ الطِّوَل ، ذكر ذلك أبو جعفر النحاس ، وكان يحفظ على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة طويلة سوى المقطّعات من شعر الجاهلية ، وغير شعر الإسلام .

تعصّب خلف للشعر الجاهليّ . — وحدّث الأصمعيّ قال: حضرت مأدبة، ومعنا أبو محرز خلف الأحمر ، وحضرها ابن مناذر الشاعر(١) ، فقال لخلف : يا أبا محرز ، إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلّدة ، فَقِس شعري إلى شعرهم ، واحكم فيها بالحقّ ، فغضب خلف ، ثم أخذ صَحفة مملوءةً مرَقًا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبًا ، وأظنه هجاه بعد ذلك : (الموشح ٢٩٦) .

ويدلّ هذا الخبر على أن خلفاً الأحمر كان في عصره كالنابغة الذبياني في نقد الشعر ، والحكم في الشعر والشعراء ، وكيف لا يُرجع في ذلك إليه ، وأبو محرز من أعلم الناس في الشعر ونقده ، وعنه أخذ الأصمعيّ نقد الشعر ؟.

فضل خلف في توجيه الرواة . — قال الجاحظ : وقد أدركتُ رُواة المسجديّين والمِربَديّين ، ومَن لم يَرو أشعار المجانين (العشاق) ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابيّة القصار ،

---

(١) محمد بن مناذر اليربوعي ، شاعر رقيق بليغ صاحب أخبار ونوادر ، ومن العلماء باللغة والأدب (— ١٩٨ هـ) .

والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدُّونه من الرّواة ، ثم استبردوا ذلك كلّه ، ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفِقَر والنتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم ، وماهم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العبّاس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنَيّات ، وما يَروي عندهم نسيبَ الأعراب إلاّ حدثُ السنّ قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فِتيانيّ متغزّل ، وقد جلستُ إلى أبي عبيدة والأصمعي ، ويحيى بن نُجيم ، وأبي مالك عمرو بن كِركِرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كلّه .

ترتيب خلف لأصحابه في نظم الشعر . — وقال أبو علي القالي في أماليه (١/١٥٧) : حدّثني أبو بكر بن أبي حاتم عن الأصمعيّ قال ، قال يوماً خلف لأصحابه : ماتقولون في بيت النابغة الجعديّ .

كأنّ مقطّ شراسيفه إلى طرف القُنْب فالمَنْقَبِ

لو كان موضع (فالمنقب) فالقَهْبَلِسْ ، كيف يكون قوله ؟

لُطِمنَ بتُرس شديد الصّفا قِ من خشب الجوز لم يُثْقبِ

فقالوا : لانعلم ، فقال : والآبَلِسْ ؛

وقال لهم مرةً أخرى : ماتقولون في بيت النّمِر بن تَولب :

أَلَمّ بصحبتي ، وهم هُجودٌ خيالٌ طارقٌ من أُمّ حِصْنِ

لو كان موضع (من أُم حصن) من أُمّ حفصٍ كيف يكون قوله :

لهـــا ما تشتهي عسلٌ مصفّى إذا شاءت وحُوّارَى بسمنِ

قالوا : لا نعلم ، فقال : وحوّارَى بَلْمصٍ ، وهو الفالوذ .

مُراعَيات خلف . — وفي إنباء الرواة (١/٣٢٩) : كان خلف حلوَ المحاضرة لطيف العبارة طريف المفاكهة والمداعبة ، قال يوماً لحمّاد الراوية : إن أحسنَ أبو عطاء السندي أن يقول : جرادة وزجّ وشيطان ، فبغلتي وسرجها ولجامها لك ، فأتياه . فقال له حماد : كيف علمك بالأوابد [1] ؟ قال : سَلْني ، قال :

وما صفراءُ تُكنى أُمّ عَوفٍ كأن رُجيلَتيها منجلانِ ؟

قال أبو عطاء : هي زَرادة ، قال حمّاد :

أتعرف مسجـــداً لبني تميمٍ فُوَيقَ السال دون بني أبانِ ؟

قال أبو عطاء : ذا مسجد بني سيطان ، بالسين غير معجمة ، قال حماد :

فما اسمُ حديدة في رأس رمح دُوَينَ الصّدرِ ليست بالسِّنانِ ؟

قال : هي زُزٌ ، فلم يستحق البغلةَ ولا السرجَ ولا اللجام ، وبحسب رواية الأغاني كان الجواب شعراً وهو :

هي الزُّزُّ الذي إن باتَ ضيفاً لصَدرك لم تزل لك عَوْلتانِ

وكان جواب أبي عطاء على سؤال الجرادة شعراً :

أردتَ زرادةً وأزنُّ زَنّاً بأنك ماأردتَ سوى لساني !

ومما يدل على ظَرف تهكمه ولطف سخريته ما حدّث به أبو عثمان المازني عن الأصمعي قال : جاء رجل إلى خلف الأحمر فقال : إني قد قلت

---

(١) غرائب الكلام .

شعراً أحببت أن أعرضه عليك لتصدقني عنه . فقال : هات ، فأنشده :

رقد النّوى حتى إذا انتبه النوى بعث النوى بالبين والترحالِ

مالنوى، جُدَّ النوى، قُطع النوى بالوصل بين ميامن وشمالِ

فقال له خلف : دَع قولي (ورأيي) ، واحذر الشاةَ (لأنها تحب النوى) فوالله لئن ظفرت بهذا البيت لتجعلنّه بَعرا ، على أني ما ظننت بك هذا كلّه !

وحدّث المازنيّ أيضًا قال : أنشد خلفًا الأحمرَ رجلٌ شعراً له ، فقال له : ما ترك الشيطان أحداً بهذا البلد إلا وقد عرض عليه هذا الشعر ، فما وجَد أحدًا يقبله غيرَك ! (الموشح ٣٦٦) .

إجلال العلماء لخلف الأحمر. — وأجمع علماء عصره على أن خلفاً كان أعلم الرواة بالشعر ومعانيه ومذاهب الشعراء فيه ، وكان ، كما ذكر أبو عبيدة ، معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة ، وفي البغية (٢٤٣) : حتى قيل : هو والأصمعي فتقا المعاني وأوضحا المذاهب وبيّنا المعالم ، وكان الأخفش يقول : إنه لم يُدرك أحداً أعلمَ بالشعر من خلف الأحمر والأصمعيّ ، واتفقوا على أنه كان أفرسَ الناس ببيت شعر ، وكانوا لا يتكلمون في الشعر ونقده ما لم يكن حاضراً .

ويدلُّ على ذلك وعلى مبلغ إجلال أساتذته له أن مروان بن أبي حفصة لما مدح المهدي بشعره السائر الذي أوله (طرقتك زائرة فحيّ خيالها) أراد أن يعرضه على نقاد البصرة ، فدخل المسجد الجامع ، فتصفّح الحِلَقَ ، فلم ير حلقة أعظم من حلقة يونس بن حبيب النحويّ فجلس إليه ، فعرّفه خبره ثم استأذنه أن يسمعه ، فقال يونس : يا ابن أخي إن هنا خلفا ، ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعراً حتى يحضر ، فإذا حضر فأسمِعْه .

كذلك كانوا لا يراجعون خلفـًا في قولٍ إن قال ، ولا في رأي إن رأى ، ولا يكاد يضاهيه أحد في القدرة على صوغ الشعر الفحل ، والعلم بالشعر ونقده ، فهو في ذلك نسيج وحده . . والعلماء بالشعر ، كما يقول أبو عمرو ابن العلاء : أقل من الكبريت الأحمر . وقال أبو حاتم السجستاني ، قال الأصمعي : كأنما جُعِل علم لغة ابنيْ نزار ، ومن كان من بني قحطان على لغة ابنيْ نزار بين جوانح خلف الأحمر !

والأصمعي هو القائل : ذهبت بَشاشةُ الشعر بعـــد خلف الأحمر ؛ فقيل له : كيفَ وأنتَ حيٌّ ؟ فقال : إن خلفـــاً كان يحسنه كلَّه ، وما أُحسن منه إلاّ الحواشي ! وكيف لايقول الأصمعي ذلك ، وما أخذ نقد الشعر وعلمه إلاّ من خلف ؟ .

وحكى محمد بن سلام الجمحي في طبقاته[1] : اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لساناً ، كنا لانبالي اذا إخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا أن لانسمعه من صـــاحبه ؛ ومثل ذلك يقول أبو زيد الأنصاري ، قال محمد بن إسحق النديم (٨٧) ،وقرأت بخط إسحق قال لي أبو زيد : أتيتُ بغداد حين قام المهديّ محمد ، فوافاها العلماء من كل بَلدةٍ بأنواع العلوم ، فلم أرَ رجلًا أفرسَ ببيت شعر من خلف ، ولا عالمـــاً أبذلَ لعلمه من يونس .

ويقول الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لايعرف إلاّ غريبه ، فسألت الأخفش فلم يعرف إلاّ إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لاينفذ إلاّ فيما اتصل بالأخبار . قلت : وإن جميع ماذكره الجاحظ هنا متفرقاً قد جمعه الله في خلف الأحمر ، وقد أقرّ الجاحظ آنفاً بمثل ذلك .

---

(١) طبقات فحول الشعراء (ص ٢١) بشرح الأستاذ المحقق محمود محمد شاكر (دار المعارف مصر) .